الفصل الثاني

طبيعة الذئب وحالاته الخاصة

طبيعة الذئب

الوحدة والاجتماع

على الرغم من أن الدراسات الميدانية عن الذئب العربي ما زالت قاصرة، إن لم تكن مفقودة كلية، فقد تأتي عرضاً مثل دراسة : Gross, Mammals of the Southern Gulf أو Harrisson, Mammals of the Arabian Gulf، فالمعروف أن الذئاب العربية لا تسير جماعات كبيرة، بل أغلبها - وهي من عائلة واحدة، كما هي عادة الذئاب عامة - لا يتجاوز الثلاثة، وقلما يصل إلى أربعة ذئاب .

وقد لوحظ أن الذئب العربي كثيراً ما يكون منفرداً بنفسه عن الآخرين، ولعل ذلك يرجع إلى البيئة الصحراوية الجافة المقفرة التي يعيش فيها، والتي تجبر جماعات الذئاب على التفرق والاعتماد على الذات للحصول على الطعام. وهذا واضح من القصائد التي تكررت في اللقاء بالذئب، كما هو الحال في قول المرقش :

ولما أضأنا النار عند نزولنا عرانا عليها أطلس اللون بائس[1]

وقول امرئ القيس :

لَقِيتُ عليه الذِّئْبَ يَعْوِي كأنَّهُ خَلِيعٌ خلا مِنْ كلِّ مالٍ ومن أهل[2]

---

(١) الأنباري، شرح ديوان المفضليات، ص٤٦٦ .

(٢) ابن حجر، ديوان امرئ القيس، ص ٣٦٣.

وكذلك في قصيدة الأعشى العينية[١]، وفي قصيدة النابغة الجعدي، هنالك ذئب واحد افترس عجل المهاة[٢]، ولم يشاركه فيه غيره، على عكس ما فعلت الذئاب التي أكلت عجل بقرة لبيد [٣].

وفي أبيات غيلان بن سلمة إشارة إلى ذئب واحد منقطع في الخلاء الموحش. وكذلك في أبيات الأعرابي الذي قتل الذئب، وفي أبيات الرجل الذي لقي ذئبا في الطريق، وفي أبيات عبيدالله بن ربيع، وفي أبيات عمرو بن الصعق بن خويلد، وفي أبيات الفزاري جويرية، وفي أبيات حميد بن ثور الهلالي، وفي أبيات كعب بن زهير اللامية، وفي أبيات ابن مقبل، وابن أحمر، والطرماح، وكُثيِّر، والفرزدق، والكيمت، والبحتري...إلخ [٤].

وعلى هذا، يمكن أن نفترض أن عدد الذئاب في قصيدة لبيد لا يتجاوز الثلاثة، يقول لبيد في أبياته :

لِمُعَفَّرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوَهُ غُبْسٌ كواسبُ لا يُمَنُّ طعامها

صادفن منه غرة ...[٥]

---

(١) ميمون بن قيس الأعشى، ديوان الأعشى، تحقيق: محمد محمد حسين، (القاهرة: المطبعة النموذجية، ١٩٥٠م) ص١٥٥.

(٢) النابغة الجعدي، شعر النابغة الجعدي، جمع وشرح: عبدالعزيز رباح (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٥٩م) ص ص ٦٢ — ٦٣.

(٣) لبيد بن ربيعة، شرح ديوان لبيد بن ربيعة، تحقيق: إحسان عباس (الكويت: مطبعة الحكومة، ١٩٦٢م) ص٣٠٨ .

(٤) انظر عن كل هؤلاء المذكورين هنا: فضل بن عمار العماري، الذئب في الشعر العربي القديم (الرياض: مركز البحوث، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، ع٦٥، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م).

(٥) ابن ربيعة، شرح ديوان لبيد، ص٣٠٨ . المعفر: ابنها الذي سُحب في التراب. القهد: الأبيض الصغير . الغبس: الذئاب المغبّرة اللون. الكواسب : التي تتعيَّش من الصيد. لا يمن طعامها : تعتمد على نفسها.

ولكنّ امرأ القيس قال: إن ذئاباً كثيرة كانت بالقرب من ذلك الذئب، ذاك الذي لقيه، حيث ذكر:

فقلت عليك الحَوْضَ إني تَرَكْتُه وفي صفوه فَضْلٌ القَلوصِ من السِّجل

فطرَّب يستعوي ذئاباً كثيرة وعديت كل من هواه على شغل[1]

الأمر الذي يعني أن الذئاب كانت مجتمعة في موقع ما، وأنها أيضاً ذات قرابة، كما هو الحال في تجمعات الذئاب المعروفة؛ ولكن من ناحية أخرى، لعل ذلك حالة استثنائية، إذ إن "كثيرة": تعني أكثر من العدد المفترض لتجمعات الذئاب العربية، أي: في حدود ثلاثة إلى أربعة، وذلك إلا أن يكون قد قصد أن فرحته بالماء جعلته يعوي، ويعوائه ذاك تتقاطر عليه الذئاب المتفرّقات في تجمعاتها المحدودة، أو لبيان أن الماء الذي تركه امرؤ القيس كان كثيراً، كناية عن عِظَم دلوه الذي استخرج به الماء، فشربت منه ناقته، وبقي فيها ما يكفي ذئاباً كثيرة في الحوض الذي صنعه.

ويذكر أبو كبير الهذلي أن مجموعة من الذئاب وردت الماء، من غير تحديد لعددها، فيقول:

ولقد وردت الماء لم تشرب به بين الربيع إلى شهور الصَّيف

إلا عواسل كالمراط معيدةٍ بالليل مَوْرِد أيِّم متغضِّف[2]

ولا يناقض قول الشنفرى القلة العددية، فهو لم يبيّن أعدادها أيضاً، بل اكتفى بالقول:

دعا فأجابته نظائر نُحَّل[3]

---

(١) ابن حجر، ديوان امرئ القيس، ص٣٦٤.

(٢) أبو سعيد، الحسن بن الحسين السكري، شرح أشعار الهذليين، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج (القاهرة: مطبعة المدني، د- ت) ج٣، ص١٠٨٥.

(٣) الشنفرى، شعر الشنفرى، ص٧٥.

ويشير الأعشى إلى وجود ذئاب كثيرة في منطقة ذات أشجار ملتفّة كانت الظبية ترعى فيها، يقول:

وإذا خافـت السباع مـن الغَيْـ ـل[١]

أما ذو الخرق الطهوي، فقد أشار إلى ما نظنه هو الحالة الطبيعية في الذئاب العربية، وهي قلة العدد، فقال:

أَلَم تعجَب لذئبٍ بات يعوي لِيُؤذِنَ صاحباً له باللِّحاق[٢]

وكذلك أشار جويرية الفزاري في قصيدته، حيث قال:

فتركتهـا لعيالـه جَـزراً[٣]

أي: هذه المجموعة الصغيرة التي تتكون من الأبوين والجراء.

ويمكن جمع الحالتين: التفرد والاجتماع في أبيات كعب بن زهير الذي ذكر أن الذئب قد يكون مرة منفرداً، وقد تصحبه مجموعة، ولابد أن نتنبّه إلى لفظة: "شيعة"، فهي تعني هنا: القرابة القريبة؛ كما هو معروف عن الذئاب، يقول:

وإن يَغْدُ في شيعةٍ لم يُثنِه نَهَرُ وإن غدا واحداً لا يتقي الظُلَمَا[٤]

وتؤكد أبيات الراجز هذه الحقيقة التي نقول بها، وهي: أن الذئاب العربية عادة ما تكون قليلة العدد، وما تؤكده الدراسات الحديثة من أن تجمعات الذئاب لابد أن تكون من أسرة شديدة القرابة ببعضها، فهو يقول: إنه يصف ذئباً وذئبة وجروين لهما،

---

(١) الأعشى، ديوان الأعشى، ص٢٦١.

(٢) أبو العباس، أحمد بن يحيى ثعلب، مجالس ثعلب، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: دار المعارف، ط٢، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م) ج١، ص١٥٤.

(٣) المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص ص ١٢٦- ١٢٨.

(٤) ابن زهير، ديوان كعب بن زهير، ص ص ٢٢٤-٢٢٦.

مع العلم بأن الذئبة تلد في حدود خمسة جراء، ولعل بعضها مات؛ لأنه لايُتصور أن تعتمد تلك الجراء الصغيرة على نفسها في هذه السن، فتفارق أمها، يقول:

أَنْعُتُ ذِئْباً...

تَبْرِي له طَلْسَاءُ ذاتُ جرويـن[1]

الجوع

من المعروف أن الذئاب العربية تفوق في جوعها الذئاب الأخرى؛ لأنها لاتحصل على طعامها بيسر، بل تجاهد في سبيله، وصفة الجوع هذه تجدها في قول تأبط شرًّا:

إنْ كُنْتَ لَمَّا تُمَوَّلِ

كـلانا إذا مـا نال شيئاً أفاتَهُ ومَن يحترث حرثي وحرثك يهزَل[2]

وفي أبيات الشنفرى صفات وعبارات شديدة الدقة في تصوير تلك الحالة:

وأَغدو على القُوت الزَّهيد كما غدا أزلّ تهـاواهُ التنائفُ أطْحَـلُ

غدا طاويـاً يُعارض الريح هافياً يخـوتُ بأذناب الشعـاب ويعسُلُ

ثم قوله:

فأَغْضَى وأَغْضَتْ وابْتَس وابْتَسَتْ به مَرَامِيلُ عَزَّاها وعزَّتْهُ مُرْمِلُ [3]

وبيّن النابغة الجعدي حالة الجوع المصاحب للذئب في قوله:

يُمسـي ويُصبـحُ مُقْفِـرَا [4]

---

(١) ابن قتيبة، المعاني الكبير، ج١، ص١٩٧.

(٢) تأبط شراً، ديوان تأبط شرّاً، ص١٨٤.

(٣) الشنفرى، شعر الشنفرى، ص ص ٧٤، ٧٧. ابتس: أنس. المراميل: جمع مرمل، وهو الذي فقد زاده.

(٤) الجعدي، شعر النابغة الجعدي، ص ص ٦٢ - ٦٣.

أي : وحيدا في القفر لا زاد له ؛ ولهذا، قال ربيعة الرقي :

ظلمتُ كذئب السوء إذ قال مرة لكل رأي الذئب غرثان مرمل [١]

وتزداد صور الجوع حدة في قول أبي كبير الهذلي، مشبها الذئاب بالسهام :

إلا عَوَاسِـــــلَ كالمِـــــراطِ

ثم قوله :

تَعْوِي الذِّئابَ مِنَ المجاعةِ حولَهَ إهلال ركب اليامنِ المُتَطَوِّفِ [٢]

ومن أدق صور الجوع عن الذئب الصورة التي رسمها جويرية الفزاري، فقد ركز تركيزا كبيراً على هذه الناحية، مما أثار عاطفته، فنحر له ناقته ؛ فالذئب شقي، جائع دائماً، لا يحصل على طعامه، إلا بعسر، وعلى قدر . وهو ليس نهماً، بل يكتفي بما يحصل عليه من طعام، يطلبه دائماً، يقول :

وَلَقَـد أَلَـمَّ بنـا لنَقْرِيَـهُ بادي الشقـاء مُحَارَفَ الكَسْبِ

يَدعُـو الفنـا إن نال عُلْقَتَـهُ مِـن مطْعَـمٍ غِبّـاً إلى غِـبِّ

وطَـوَى ثميلَتَـهُ فألْحَقَهَـا بالصُّلْبِ بَعْـدَ لُدُونَة الصُّلْـبِ

يا ضَلَّ سعيـك مـا صنعتَ بِمَـا جمَّعْـتَ مِـنْ شُـبَّ إلى دبِّ

فَجَعَلْتَ صَالِحَ مـا احترثْتَ ومَا جمَّعْتَ مِنْ نَهْبٍ إلى نَهْبِ [٣]

أما الكميت، فقد أعطانا لمحة جديدة عن حالة الذئب العربي في الصحراء، فهو، وإن اختار العيش بعيداً عن الناس ؛ لأنهم يطاردونه، فيقتلونه، فإن هذا

---

(١) ربيعة الرقي، شعر ربيعة الرقي، تحقيق : يوسف حسين بكار (بغداد : دار الرشيد، ١٩٨٠م) ص ٨٥ .

(٢) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص ص ١٠٨٥ – ١٠٨٦ .

(٣) المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص ص ١٢٦ – ١٢٨ .

محارف : محروم . الشميلة : بقية الطعام في الجوف.

الاختيار قد يودي بحياته، خاصة إذا كان طاعناً في السن. وفي وصف الكميت لهذا الذئب بأنه أعمى من الجوع والعطش أبلغ دليل على قساوة حياته وضنكها، يقول:

لَقينا بهـا ثِلْبـاً ضريـراً كأنَّهُ إلى كلِّ مَنْ لاقى من الناس مُذْنِبُ
مُضيعاً إذا أثـرى كسوباً إذا عدا لساعته ما يستفيدُ ويكسبُ [١]

ففي هذين البيتين ملاحظتان: الأولى قوله: "مذنب"، لأن الناس ما تنفك تريد قتله. والثانية قوله: "مضيعًا... لساعته ما يستفيد ويكسب"، أي: أن سبب جوعه الدائم هو قناعته بصيد يومه، ولليوم الآخر كسب آخر جديد، وهذا الوضع لا يتوافق مع طبيعة الصحراء الجافة القاحلة، ولكنه وضع الذئاب في كل مكان، ففي الصورة التي قدمها الطرماح إضافة لازمة للذئب بالقفر، فبينهما إخاء، على الرغم من أنه ليس بها ما يسد رمقه، يقول:

تَأَوَّبَني فيهـا على غيـرِ موْعِدٍ أخُو قفرةٍ يضحى بها ويجوعُ [٢]

ونتيجة لهذا الحرمان المستمر في حياة الذئاب، قالوا عنه:

أجوع من ذئب: لأنه دهره جائع [٣].

أكسب من ذئب: لأنه أبداً في طلب صيده، لا يهدأ، ولا ينام [٤].

---

(١) الكميت بن زيد الأسدي، شعر الكميت، جمع: داود سلوم (النجف: مطبعة النعمان، ١٩٦٩م) ج١، ص٨٦. الثلب: الهَرِم.

(٢) ابن حكيم، ديوان الطرماح، ص ١٨٩. تأوبني: أتاني ليلاً. أخو قفرة: الذئب. يضحى: يبرز إلى الشمس. أي: لا يستظل، وإنما يعاني وَقْد الهوجر ويظمأ.

(٣) الأصبهاني، الدرة الفاخرة، ج١، ص١١٨.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٦٦.

الذئب يغبط بذي بطنه، أي: أن الذئب يُظن به البطنة لكثرة عدوه، وشدة جرأته، وربما كان مجهوداً من الجوع" [١].

الذكاء

تكشف أبيات لبيد في معلقته عن هذه الصفة التي شددت عليها الدراسات المعاصرة، إذ إن تقسيم الأدوار وإستراتيجية الهجوم، وتعيين الفريسة من أهم أمارات الذكاء في الذئاب [٢]. ومهارة الذئب العربي وذكاؤه ظهرا لنا جليّاً هناك، حيث استطاع أن يفترس (العجل) وهو في موضع تكثر فيه الأبقار، وتعلم أن أمه شديدة الحرص عليه [٣]، مما يبين عن قدرات كبيرة في القنص، ربما فرضتها عليه طبيعة الحياة القاسية التي يحياها.

وقد بين الأعشى تفصيلاً لاستثمار الذكاء عند الذئاب، فشخّصه تشخيصاً يجمعه بينه وبين الصياد في الشعر العربي القديم، تقول:

أهوى لها ضابئٌ في الأرض مفتحص ... للحم قدما خفي الشخص قد خشعا

فظل يخدعها عن نفس واحدها ... في أرض فَيْءٍ بفعل مثله خدعا [٤]

وهكذا، كان الذئب عند ابن مقبل وابن أحمر [٥].

ومما لا شك فيه أن حركة الاختطاف التي تمارسها الذئاب، بحيث تحتال في الوصول إلى إحدى الأغنام، بل يتجاوز ذلك اختيار السمينة منها، وذلك في سرعة

---

(١) أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبدالمجيد قطامش (القاهرة: مطبعة المدني، ط ١، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م) ج١، ص٤٦١.

(٢) L.D. Mech, The Wolf (Minnea polis: Univ. of Minnesota Press, 1981), p. 196-205.

(٣) انظر ما سبق، ص٣٦.

(٤) الأعشى، ديوان الأعشى، ص١٠٥.

(٥) عمرو بن أحمر الباهلي، شعر عمرو بن أحمر الباهلي، جمع: حسين عطوان (دمشق: مجمع اللغة العربية، د- ت) ص ص ٩٧- ١٠١.

مذهلة جدًّا، لدليل على حدة الذكاء في الذئب وقدرته الفائقة على التصرف. وهذا واضح في تصوير كعب بن زهير لهذه الحركة من الذئاب.

رهافة الحس

وهذه أيضاً من الصفات التي لوحظت كثيراً في الذئاب.

فالذئب كما وصفه حميد بن ثور الهلالي:

ينـــام بإحـــدى مُقلتيـــه [١]

وذلك لشدة حذره وحساسيته. ويتبين الإفراط في الحساسية في تشبيه الطرماح له، بأنه مثل الظَّنَّان الشكاك الذي لا يهدأ له بال، يقول:

كذي الظن لا ينفك عوض كأنه أخو جهرة بالعين وهو خدوع [٢]

وقريب من ذلك قول ذي الرمة: إن الذئب يتحسس الأصوات تحسساً، ويتحفز لها تحفزاً:

يَخُبُّ ويَستَنشي وإن تأت نَبأة على سمعه يَنْصِب لها ثم يَمْثُلِ [٣]

الشجاعة

وقد أكدوا شجاعة الذئب، حتى سموه:

ذئب عَمَرَّط: أي شديد جسور [٤].

---

(١) الهلالي، ديوان حميد بن ثور، ص١٠٥.

(٢) ابن حكيم، ديوان الطرماح، ص ١٨٩. أخو جهرة بالعين: يقظان متنبه.

(٣) غيلان بن عقبة، ذو الرمة، ديوان ذي الرمة، تحقيق: عبدالقدوس أبو صالح (بيروت: مؤسسة الإيمان، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م) ج٣، ص ص١٤٨٧ – ١٤٨٩. يخب: الخبب، نوع من المشي. يستنشي: يتشمم. النبأة: الصوت الخفي. ينصب: يقوم وينتصب. يمثل: يقف.

(٤) الزبيدي، التاج، "عمرط".

والأَحْوَس [١].
والمُجَلَّح [٢].

الغدر والخيانة

ومن الصفات المعنوية ما هو مذموم عند العرب، حتى أجمعوا في أمثالهم فيه على قولهم:

أخون من الذئب [٣].
أظلم من الذئب [٤].

وقالوا فيه:

الذئب غادر [٥].
الذئب فاجر [٦].

عدم الحياء:

قال المتنبي:

وليس حياءُ الوجه في الذئب شيمةً ولكنه من شيمة الأَسَد الوَرْد

أي: أنه ليس من شيمة الذئب الحياء، وإنما من شيمته القِحَة [٧].

---

(١) المصدر نفسه، "حاس".
(٢) ابن منظور، اللسان، "جلح".
(٣) العسكري، جمهرة الأمثال، ج١، ص٤٣٩.
(٤) المصدر نفسه، ص٤٤٦.
(٥) الزبيدي، التاج، "غدر".
(٦) ابن منظور، اللسان، "غدر".
(٧) أحمد بن الحسين المتنبي، شرح ديوان المتنبي، تحقيق: عبدالرحمن البرقوقي (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م) ج٢، ص١٦٣. الورد: الذي لونه حمرة مثل الورد.

القناعة

وعلى الرغم مما أثير حول الذئب من حرص وجشع على الصيد، فإن الدراسات الحديثة أثبتت أن الذئاب ليست شرهة على الأكل، فهي تأخذ ما يكفيها، ثم تترك الباقي، دون محاولة للاستزادة، ودون أن تكون شحيحة عليه. وإن كانت هناك آراء غير مؤكدة بعد عن دفن الذئاب ما يتبقى من الصيد لتعاود الرجوع إليه. ولكن المهم أنها لا تأكل بنهم وشدة، على الرغم من إحساسها بالجوع المستمر [١].

وفي قصيدة المرقش إشارة إلى هذه القناعة عند الذئاب، فهو يقول:

نَبَذْتُ إليه حُـزَّةً مـن شِوائنـا حَياءً وما فُحشي على من أُجالسَ[٢]

قوله "حياء"، إشارة إلى الكرم العربي الذي يعطي الجزيل وينعم.

فالمرقش لم يجد لديه إلا نبذة يسيرة من شوائه رمى بها إليه. وقد اقتنع الذئب بذلك، فكان كما قال، مستخدماً صفة دقيقة على هذه الناحية: "جذلان"، ولم يكن بَرِماً ضَيِّقاً بها، فقال:

فآض بهـا جذلان يَنفُـض رأسَـه كما آب بالنَّهب الكَمِيُّ المحالس [٣]

والقصة نفسها، وبالأسلوب نفسه، تتكرر عند عمرو بن الصعق.

وفي أبيات الفزاري جويرية، توضيح للناحيتين السابقتين معاً: الكرم العربي، المتمثل في نحر الناقة الكَوْماء للضيفان، وجويرية عقر أسمن نياقه للذئب، والقناعة والأثرة المعروفتين في الذئب، فهو يعلم أن الذئب لن يأتي على الناقة بأكملها، بل

---

(١) David Mech, The way of the Wolf (England: Swan Hill press, 1991) pp. 69.

(٢) حزة: قطعة.

(٣) الأنباري، شرح ديوان المفضليات، ص٤٦٦. آض: عاد. المحالس: الشديد الذي لا يبرح مكانه.

سيدعو لها مجموعته من الذئاب، وهي المجموعة التي قلنا؛ إن الذئاب العربية تتكون منها، أي: أسرة واحدة، شديدة القرابة، قليلة العدد.

ولكن القصائد التي تكرر فيها افتراس الذئب للعجل، مثل قصيدة ابن أحمر وابن مقبل، تجعل الذئب قد أكل العجل كله، فلم يبق منه: "إلا شماليل"، كما قال ابن مقبل [١]، و"إلا سماحيق"، كما في قول ابن أحمر[٢]. وهذا يدل على أن العجل كان رضيعاً، أي: صغيراً جداً بحيث إن الذئب أكل لحمه كله. ولكن أهم إشارة، هي أن الشعراء لم يخبرونا عن اختزان الذئب شيئاً من اللحم بدفنه، كما أشارت بعض الدراسات الحديثة إلى ذلك [٣].

وقد وصفه النابغة الجعدي بأنه "شحيح". وهي صفة بعيدة كل البعد عن الذئاب، إلا أن يكون المقصود بذلك حرصه على طلب الصيد، كما أوضحت الأمثال عنه هذه الصفة.

ويقولون: إن الذئب يعيث في الغنم، أي يفترس منها ما شاء، وهذا القول مبالغ فيه، فحقيقة الذئب أنه قنوع، يكتفي باختطاف الفريسة والذهاب بها بعيداً، وأكلها، أو أكل جزء منها، ولكنه بلا شك يعاود الهجوم على الغنم، ويثير فيها الفزع والرهبة، فتتشتت، ولعل هذا هو ما كانوا يقصدونه بتلك العبارة، وقد ذكر ذو الخرق الطهوي هذه القصة التي ألصقت بالذئاب، فهذا ذئب وحيد، يدعوه إلى فعل ذلك في غنم بني تميم، فيقول:

عليك الشـــاء شاء بنـــي تميـــم فعافقـــه فإنـك ذو عفـــاق[٤]

---

(١) ابن مقبل، ديوان ابن مقبل، ص٣٨٦. الشماليل: البقايا.

(٢) الباهلي، شعر عمرو بن أحمر، ص ص٩٧– ١٠١. السماحيق: جمع سمحاق، وهو جلدة رقيقة فوق قحف الرأس، يريد أشلاء ولدها.

(٣) Mech, The Way of the Wolf, p. 69.

(٤) ثعلب، مجالس ثعلب، ج١، ص١٥٤.

كما أن في أبيات كعب بن زهير تفصيلاً تاما لما تفعله الذئاب بالأغنام.

اليقظة

لاحظ العرب أن الذئب مفرط الحساسية، متحفز، مستيقظ دائماً، إلا أنه يعتريه ما يشبه الغفوة، قال كثيّر، في وصف الطريق (الأبيض):

وأبيـــض ينعس السرحـــان فيه كـــأن بياضَـــهُ ريـــط غسيل [١]

الموت

كل حيٍّ آيل إلى الموت، وكل شيء إلى فناء، غير أن من طباع الذئب التظاهر بالمـوت [٢]. وهـذه حالة لـم يذكرهـا العرب، وإن ذكـروا موت الذئب، كقول ابن مقبل:

متـــى دفعنـــا إلى ذي ميعة نتق كالذيب فارقه السلطان والروح [٣]

الجهد في الصيد:

وهذا طبيعي في ظل الظروف التي يحياها الذئب العربي خاصة، ولذلك استخدم لبيد صفة "كواسب" أي: التي تعتمد على جهدها وقدراتها الخاصة في الحصول على معاشها. يقول كعب مبيّناً حالة الكسب هذه التي يصاحبها الجهد الدءوب:

كسوب إلى أن شَـبَّ من كَسْب واحد مُحالِفُه الإقتـــار لا يَتَمَوَّل [٤]

---

(١) كثيّر بن عبدالرحمن، كثيّر عزة، ديوان كثيّر عزة، جمع وشرح: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧١م) ص١٢١.

(٢) R. D. Laurence, Der Ruf der Wolfe, (Germany: Albert Muller Varlay, 1987) s. 129.

(٣) الحموي، معجم البلدان، "الأنقور". وليس في ديوانه.

(٤) ابن زهير، ديوان كعب بن زهير، ص٤٨. الإقتار: ضيق الرِّزق.

حالات الذئب الخاصة

السير

لعدو الذئب عدة صفات منها:

الذألان: من المشي الخفيف، والذئب يسمى: ذؤالة [١].

الممعد أو الماعد: إذا كان يجذب العدو جذبا [٢].

العاسل: إذا مضى مسرعاً [٣].

وبما أن الذئب يرى منه التعارج في سيره، فقد سموه: الأقزل [٤].

الأحل: إذا وثب، ومشى مشية العرجان [٥].

وسموه:

النسول: السريع العدو [٦].

الهزلاج: لأنه سريع خفيف [٧].

ومما ذُكر في مشيه، قول أحدهم:

كـأن انسـلال الذئـب أول ليلـة يبادر أسمال البياض انسلالها [٨]

---

(١) أبو علي، إسماعيل بن القاسم القالي، الأمالي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م) ج٢، ص٤٣.

(٢) ابن منظور، اللسان، "معد".

(٣) المصدر نفسه، "عسل".

(٤) الزبيدي، التاج، "قزل".

(٥) ابن منظور، اللسان، "حلل".

(٦) الزبيدي، التاج، "نسل".

(٧) ابن منظور، اللسان، "هزلج".

(٨) أبو علي، هارون بن زكريا الهجري، التعليقات والنوادر، تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: شركة العبيكان، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م) ج١، ص٣٧٧.

وقال آخر:

كالذئب يتلو طمعاً قريباً [١].

وقال عمرو بن حُمَيل، واصفاً أيضاً ذيله المنعقد، يعني بكل ذلك ركضه:

لِكُـلِّ عَيّـالِ الضُّحـى لَذْلاَذْ لَـونِ التُّـرابِ أَعْقَـدِ الشَّمَـاذْ

أراد بـ: عيال الضحى: ذئباً يتعيل في عطفيه، أي: يتثنى؛ والأعقد: الذي يلوي ذنبه كأنه منعقد [٢].

وقال غيره:

فأهون بذئب يكتح الريح باسته

أي: يضربه الريح بالحصى [٣].

الشم

الشم من الصفات التي عرفت عن الذئب كثيراً حتى قيل:

أشم من ذئب [٤].

الذي يشم ويستروح من ميل وأكثر من ميل [٥].

الصوت

العواء والعويل

وهو صوت الذئب، وفي تصويرهم له، ما يعكس الحزن والقلق، وذلك لارتباط صوته بالحنين والتشوق إلى الطعام، أي شدة تأثره بالجوع والقهر اللذين

---

(١) ابن منظور، اللسان، "جون".

(٢) الزبيدي، التاج، "لوذ". اللذلاذ: الذئب لسرعته. الشماذ: الذي شَمَذّ بذنبه، أي شاله ورفعه.

(٣) ابن منظور، اللسان، "كتح".

(٤) الأصبهاني، الدرة الفاخرة، ج١، ص٢٥٣.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٥٤.

يصاحبانه في عدم الحصول عليه، كما قال امرؤ القيس:

لَقِيت عليه الذئب يعوي كأنه خَليعٌ خَلاَ من كل مال ومن أهل[١]

وقال تأبط شرًا:

وواد كجوف الغير قفر قطعته به الذئب يعوي كالخليع المُعَيَّل[٢]

كما قال أبو كبير الهذلي مشبها عواء الذئاب بأصوات حجاج اليمن:

تعوى الذئاب من المجاعة حوله إهلال ركب اليامن المتطوف[٣]

وقال غيلان بن سلمة:

فتركتـــه يعـــوي بقفرتـــه[٤]

وقال حميد بن ثور:

وفكّك لَحْيَيْهِ فلَمّا تَعاديا صَأى ثم أقعى والبلاد بلاقع[٥]

وقال كعب بن زهير، مبينا صفة ذكرها المأثور العربي، وهي أن الذئب حين يعوي، يعوي مستقبلاً الريح، ولذلك تتردد أصداء عوائه في الأرجاء:

إذا ما عوى مستقبل الريح جاوبت مسامعه فاهُ على الزاد معول[٦]

والصورة نفسها نجدها عند ذي الرمة الذي استخدم لفظة: "معول"، أي: أن أصوات الذئاب كالعويل في البكاء، فيقول:

أفل وأقوى فهو طاو كأنه يجاوب أعلى صوته صوت معول[٧]

---

(١) ابن حجر، ديوان امرئ القيس، ص٣٦٣.

(٢) تأبط شرًا، ديوان تأبط شرًا، ص ص١٨٢– ١٨٣. الخليع: المقامر. المعيل: كثير العيال.

(٣) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص ص١٠٨٥– ١٠٨٦.

(٤) الجاحظ، الحيوان، ج١، ص٣٨٧.

(٥) الهلالي، ديوان حميد بن ثور، ص١٠٥. صأى: صاح. أقعى: جلس على إليتيه، ونصب فخذيه. بلاقع: مقفرة.

(٦) ابن زهير، ديوان كعب بن زهير، ص٤٨. معول: مصوِّت بالعويل.

(٧) ذو الرمة، ديوان ذي الرمة، ج٣، ص ص١٤٨٧– ١٤٨٩. أفل: وقع في الأرض. أقوى: صار في الخلاء.

وبيّن كثيّر كيف أن الذئب يمد عنقه، ويرفع صوته في أثناء العواء، فقال:

عوى ناشز الحيزوم مضطمر الحشا يعالج ليلاً قارساً مع جوع [١]

فالعواء: هو أن يلوي الذئب خطمه، ويمد صوته [٢].

وإذن فإن العواء هو الصوت المميز للذئاب، وهو الذي تردد في الشعر العربي، فمنه قول الأبيرد الرياحي:

عوى من جبنه وشقي عجل عواءَ الذئب مختلطَ الظَّلام [٣]

وفي صورة جميلة يقول حاتم الطائي، مستخدما اسم السباع للذئاب:

ودوية قفر تعاوى سباعها عواءَ اليتامى من حذار التراتر [٤]

وهو هنا يكشف عن مقاساة الذئاب في صحرائها القاحلة حيث شبّه ذلك الصياح "العواء"، بصياح اليتامى خشية "التراتر": وهي الأمور العظام.

ومن الصور الجميلة أيضاً، قول ساعدة بن جوية، مستخدما الاسم نفسه "السباع" وهذا تأكيد على أن المقصود بـ"السبع" هو الذئب:

سباع لها تعاوى كما عج الحجيج الملبد [٥]

أما الحالة الوحيدة التي صادفناها في الشعر العربي، مما يكشف عن طقوس العواء، كما يطلق عليها في الدراسات العلمية المعاصرة، وهي تصف تجمع الذئاب

---

(١) كثيّر عزة، ديوان كثيّر عزة، ص ص٣٦١-٣٦٢.

(٢) ابن منظور، اللسان، "عوى".

(٣) نوري حمودي القيسي، شعراء أمويون (بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ج١، ص٢٧٩.

(٤) حاتم بن عبدالله الطائي، ديوان شعر حاتم الطائي وأخباره، تحقيق: عادل سليمان جمال (القاهرة: مطبعة المدني، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م) ص١٩٩.

(٥) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٦٦.

للعواء حيث يبدأ القائد بالعواء، ثم تجاوبه بقية الذئاب في جوقة موسيقية واحدة، مادة أعناقها ارتفاعا وانخفاضا لمدة قصيرة جداً، هي حالة ذئاب الشنفرى. فمن الواضح أن الذئاب كانت قد تجمعت فوق مكان مرتفع من ذلك البراح، وهي الحالة المعروفة في الذئاب العربية، وكأنه يشبهها بالنساء النائحات على مثل ذلك المكان، ثم ابتدأت تلك الطقوس، بأن قام القائد، وهو هنا ذئب الشنفرى، بالعواء، فارتفعت وراءه أصوات بقية المجموعة، ثم خفض القائد رأسه، فخفضت المجموعة رؤوسها، كما فعل قائدها، واختلطت أصواتها جميعاً، كما في قوله: "واتسى واتست به"، وبعد أن انتهت الجلسة الطقسية، افترقت المجموعة، وبالإضافة إلى تلك المظاهر الطقسية التي أثبتتها الدراسات الحديثة، فإن تشبيه الذئاب بـ"نوح...شكل"، و"مراميل"، واستخدام عبارات مثل "ضج وضجت"، "شكا وشكت"، تشحن ذلك الجو بحزن هائل يتردد صداه في أرجاء تلك الأرض، ولم يُكمل تأبط شرّاً هذا المنظر في قصيدته، ولكنه أشار إليه إشارة فقال:

"فطرَّب يستعوي..."، والتطريب مما يتفق مع الدراسات الحديثة التي تصف هذه الممارسة بأنها جوقة موسيقية[١].

وتمشياً مع الملاحظات المعاصرة، فإن فترة التجمع للعواء الطقسي هذه، عادة ما تبدأ قبيل المساء، أي إن تجمع ذئاب الشنفرى كان في هذه الفترة، وهو ما يمكن ملاحظته عياناً. وإلى جانب العواء والعويل، وهما خاصتا صوت الذئب المميزتان، هناك:

التطنيب: طنب الذئب، عوى[٢].

الطنين: صوت الذئاب[٣].

---

(١) H. Frank, Man and Wolf (Dordrecht: W. Junk, 1987) pp. 313-348.

(٢) ابن منظور، اللسان، "طنب".

(٣) الزبيدي، التاج، "طنن".

ويقال: استعقر الذئب: رفع صوته بالتطريب في العواء [١].

استناح الذئب: عوى، فأدنت له الذئاب [٢].

ويقال: وعوع الذئب وعوعة ووعواعا: عوى [٣].

وقال امرؤ القيس:

كـأن خضيعـة بطـن الجـوا د وَعْوَعَـةُ الذئـب بالفدفـد[٤]

الصمت

إن من أجمل الصور التي قدمها الأدب العربي صورة الأخطل التي نقل فيها كيف أن الذئاب، عندما تشعر بحركة الصيد، تراقب المنظر بحذر بالغ الحساسية، بحيث لا يشعر الحيوان المقترب منها بها، مع أنها في كامل يقظتها له، يقول:

مِثلَ الذئاب إذا ما أوجسوا قَنَصاً كانت لهم سَكتة مُصْغٍ وَمبْلود [٥]

العَسَسُ

وقد كشف حميد بن ثور الهلالي عن طبيعة الذئاب التي تلح على الصيد ليلاً، ولاتهدأ أبداً، فقال:

وإن بات وحشاً ليلة لم يَضِق بها ذِراعاً ولم يُصبح لها وهو خاضع

ويسري لساعـات مـن الليل قَـرَّة يهاب السرى فيها المُخاض النوازع[٦]

---

(١) المصدر نفسه، "عقر".

(٢) ابن منظور، اللسان، "نوح".

(٣) المصدر نفسه، "وعوع".

(٤) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، ص٤٥٩ .

(٥) غياث بن غوث الأخطل، شعر الأخطل، تحقيق: فخر الدين قبادة (حلب: دار الأصمعي، ط ١، ١٣٩١هـ/١٩٧١م) ج١، ص١٠٤. أوجسوا: أحسوا. قنصاً: صيداً. مصغ: مستمع. مبلود: بليد.

(٦) قرة: باردة. السرى: السير ليلاً. المخاض: العشار التي قضى عليها عشرة أشهر. النوازع: التي تحن إلى أوطانها، مرعاها.

كما كشف عن تجوال الذئب في أماكن متنائية طلباً للصيد، فقال:

وإن حَـذِرت أرضٌ عليـه فإنـه بِغِرَّة أخـرى طَيِّبُ النفس قانع[١]

وهذا الطواف ليلاً هو ما يعرف بالعسس[٢].

الصيد

تبدأ الذئاب عموماً، بالصيد ليلاً، وتزداد شراسة بالذات، في الليالي المقمرة، وأغلب أوقات صيدها يبدأ قبيل الغروب حتى الفجر. وفي قصيدة المرقش الأكبر ما يدل على ظهور الذئب العربي في الليل، بحثاً عن الصيد، يقول المرقش:

ولما أضانا النـارَ عنـد شوائنا عَرانا عليها أطلسُ اللون بائس[٣]

وكذلك في قول تأبط شراً:

مـن آخـر الليـل مخضـل[٤]

وذكر ذلك أيضاً عمرو بن الصعق، فقال:

ونارٍ بمومـاة قليـلٍ أنيسهـا أتاني عليها أطلس اللون بائس[٥]

ومثل هذا قال الفرزدق:

فَبِتُّ أسـوِّي الزاد بينـي وبينه على ضـوء نار مـرة ودخـان[٦]

وأشـار كعب بن زهير إلى غـارة الذئب في الليالي المظلمـة، حيـن يغيب

---

(١) الهلالي، ديوان حميد بن ثور، ص١٠٤.

(٢) الزبيدي، التاج، "عسس".

(٣) الأنباري، شرح ديوان المفضليات، ص٤٦٦. عرانا: أتانا طالباً معروفنا.

(٤) تأبط شراً، ديوان تأبط شراً، ١٨٥. مخضل: مبتل.

(٥) الميداني، مجمع الأمثال، ج٢، ص١٠٠.

(٦) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص٣٢٩.

القمر، فقال:

وإن أغـار ولـم يَحْـلَ بطائلـة في ظلمة ابن جَمير سَاوَرَ الفُطُما[1]

كما أشار الطرماح إلى خروج الذئب للصيد ليلاً، فقال:

تَأَوَّبَني فيهـا علـى غير مَوْعِـد أَخُو قَفْرَةٍ يَضْحَى بها ويَجُوع [2]

وصرح بذلك كثيّر، فقال:

يُعالج ليلاً قارسـاً مَـعَ جـوع [3]

ويبدو أن وصف أبي كبير الهذلي للذئاب كان في ليلة مقمرة، في قوله:

إلا عواسـل كـالمراط معيـدةٍ بالليـل مَـوْرِدَ أيِّم مُتَغَضِّـف [4]

وفي أبيات غيلان بن سلمة إشارة إلى إحدى حالات الذئاب في الليل، وهي عدم الاستقرار والتجوال في منطقته ليلاً، فما ينام طوال الليل، خاصة في الليالي المقمرة، حيث يزداد طلبه وسعيه:

بتنوفـة جـرداء يَجْزَعُهـا لَحِبٌ يلـوح كأنه سَحْـل[5]

فقوله: "يلوح"، إشارة إلى أنه رآه عيانا في ذلك الليل.

إذ إن من عادة الذئاب الصيد في الليالي المقمرة بالذات، ولذا كان قتل عجل بقرة لبيد قرب المساء حيث تتحرك الذئاب للصيد ابتداء من هذا الوقت، فقد أشار إليه

---

(١) ابن زهير، ديوان كعب بن زهير. ص٢٢٦. لم يحل: لم يظفر. طائلة: فائدة كبيرة. ابن جمير: أظلم ليلة في الشهر.

(٢) ابن حكيم، ديوان الطرماح، ص ١٨٩.

(٣) عزة كثيّر، ديوان كثيّر عزة، ص ص٣٦١– ٣٦٢.

(٤) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص ص١٠٨٥ – ١٠٨٦. المراط: النِّبْل المتمرِّطة الريش. معيدة: معيدة الشرب مرة بعد مرة. الأيم: الحية.

(٥) الجاحظ، الحيوان، ج١، ص٣٧٨. يجزعها: يقطعها. لحب: طريق واضح. سحل: ثوب أبيض.

الأعشى من إحساس الظبية بميعاد خروج الذئاب مساء من الغيل أي: الشجر الملتفّ، في قوله:

وإذا خافت السباع من الغيـ ـل وأمست وحان منها انطلاق[1]

وعلى الرغم من أن الأعشى لم يخبرنا عن هجوم الذئاب على الصغير، فإن خاتمة القصة تشير إلى أن الذئاب هجمت على الصغير ليلاً، في غفلة منها، فأكلته، حيث يقول:

فاصبري النفس إن ماحُمَّ حقٌّ ليس للصَّدع في الزُّجاج اتفاق

وذلك على الرغم من إمكان ظهورها نهاراً، ولعل سبب ذلك يرجع إلى أن الظبية قريبة من الغيل (الأجمة) كما ذكر، ولذلك كانت تخشى هجوم الذئاب نهاراً في قوله:

ما تَعَدّى عنه النهار ولا تعـ ـجوه إلا عفاقة أو فواق[2]

ولنا أن نفهم أن المساء هو وقت خروج ذئب النابغة الجعدي، في قوله:

فأمسى عليه أطلس اللون شاحباً

أما قوله: "أنامت"، فلا يعني إلا أنها تركته هناك، وذلك؛ لأن البقر الوحشي ترعى نهاراً، أما في الليل فتذهب لتنام تحت الشجر. حقا إن النابغة الجعدي لم يوضح[3] لنا متى كان لقاء البقرة بالثور، ولكن إما أن يكون هذا بعد الحادثة مباشرة، وإما أنه اختصر الحدث حتى الصباح.

---

(١) الأعشى، ديوان الأعشى، ص٢٦١.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٦١.

(٣) الجعدي، شعر النابغة الجعدي، ص ص٦٢– ٦٣. السباع: الذئاب هنا. الغيل: الشجر الملتف الكثيف. الأطلس: الذئب.

أما قول الشنفرى:

وأغدو على القوت الزهيد كما غدا أَزَلُّ تهاداه التنائف أطحـــل [١]

فعلى الرغم من أن الذئاب تسعى بالليل حقًّا، فإنها قد تواصل السعي حتى الصباح الباكر؛ ولذلك ربط الشنفرى بينه وبين الذئاب في السعي عند أول طلوع النهار، ولا يعني وصفه لتجمعها مساء أنها ظلت تسعى طيلة النهار، بل هي ملاحظة وقت ذلك التجمع مساء، وهو قد جمع صوراً شتى للذئاب في هذه الصورة الواحدة.

ويبدو أن الأعشى في عينيّته راقب البقرة صباحاً، فلما انصرفت عنه لترعى طوال النهار حتى المساء، أكل الذئبُ العجلة، ولذلك قال:

فظـل يأكـــل منهـــا وهـــي راتعة حَـدّ النهـار تُراعـي ثِيرَةً رُتُعـا [٢]

المطاردة

شبه ابن مقبل مطاردة الحمار الوحشي، وهو على ظهر جواده، بمطاردة الذئب طريدته، فقال:

وجاوزه مستأنس الشـأو شاخص كما استأنس الذئب الطريد يغاوله[٣]

الهجوم والاختطاف

إن أسرع طريقة عند الذئب لقتل فريسته، هي الانقضاض على حنجرتها وتمزيقها، فتعثر تتضرج بدمائها، وتموت من ساعتها. وهذه الحالة واضحة في قول لبيد:

لِمُعَفِّـــرٍ قَهْـــدٍ تَنَـــازَعَ شِلْـــوَه غُبْسٌ كواسِبُ لا يُمَنُّ طعامها[٤]

---

(١) الشنفرى، شعر الشنفرى، ص٧٤. القوت: ما يمسك الرمق من الرزق. الأزل: الخفيف اللحم في مؤخرته. التنائف: المفاوز.

(٢) الأعشى، ديوان الأعشى، ص ١٥٥. حد النهار: طوال النهار. ثيرة: قطيع من البقر الوحشي، وقد عبّر عنها بـ"ثيرة: أي جمع ثور". رتعا: راتعة، تأكل وتشرب في خصب وسعة.

(٣) ابن مقبل، ديوان ابن مقبل، ص٢٥٠.

(٤) ابن ربيعة، شرح ديوان لبيد، ص٣٠٨.

إذ يبدو أن القائد جاء إلى العجل خَتْلاً دون أن يشعر به، وذلك حتى لايثير صوتاً أو حركة ينبهان أمه، ثم انطلقت عليه الذئاب الأخرى تمزق أوصاله.

وقد أوضح النابغة الجعدي أن الذئب أغار على العجل، فذبحه من حنجرته، وذلك لتشبيهه بالرجل الذي يذبح الشاة، فقال:

فبات يُذَكّيهِ بغير حديدة أخو قَنَص يمسي ويصبحُ مقْفِراً [١]

وفي أبيات ابن مقبل أيضاً إيضاح للكيفية التي يهشم بها الذئب رقبة الضحية:

شَدَّ المُماضِغَ منه كلَّ مُنْصَرَفٍ من جانبيه وفي الخرطوم تسهيل [٢]

ومثل ذلك واضح في قول الراجز، مبيّناً كيف يحتال الذئب في القبض على الشاة من حلقومها:

مازال ذئب الرقمتين كلما
دارت بوجه دار معها أينما
حتى اختلى بالناب منها البلذما [٣]

وإذا كان الذئب في حالة الصيد المرتبطة بالبقر الوحشي والظباء، يختتل العجل أو الظبي الصغير، وهو غير بعيد عن أمه، فيفترسه، فإن الصورة المألوفة لعلاقة الذئب بالغنم أن يتسلل إلى حظائر الأغنام، فيختطف إحداهن ويهرب بها.

---

(١) الجعدي، شعر النابغة الجعدي، ص ص٦٢-٦٣. يذكيه: يذبحه. مقفر: ذهب طعامه وجاع.

(٢) ابن مقبل، ديوان ابن مقبل، ص٣٨٦. شد المماضع: أي أخذ ولد البقرة، فشد مماضغه عليه، يعني أضراسه. كل منصرف: كل ناحية من جانبي ولد البقرة.

(٣) ابن منظور، اللسان، "بلدم". البلدم والبلذم: الحلقوم وما اتصل من المريء.

كما في أرجوزة عمرو ذي الكلب، وكما أوضح حميد بن ثور ذلك:

إذا نال مـن بَهْـم البَخيلـة غِـرَّة على غَفلة ممـا يَرى وهـو طالع[١]

وقد سمّى كعب بن زهير المختطفة من الأغنام: "مغيَّبة"، وبيّن حالها، وهو يعدو بها، تسيل دماؤها بعد أن فَصَم عنقها، فَدَمُها يسيل من رقبتها، ورقبتها مائلة على جانبها: "صيداء"، يقول:

إذ لا تـزال فَرِيسٌ أو مُغَيَّبـة صَيداء تَنْشِج من دون الدِّماغ دما[٢]

التضامن

إن الذئاب العربية كما هو ملحوظ قليلة العدد في تكوين مجموعاتها. ومن طبيعة الذئاب، بشكل عام، تقسيم الطعام فيما بينها، وهذا هو الحال في الذئاب العربية أيضاً، ففي قول لبيد: "تنازع شلوه"، دليل على أنها تتقاسم الغذاء، فليس عندها أنانية، وإن يكن التقسيم الطبقي للذئاب، كما تثبت ذلك الدراسات العلمية، تجعل الأولوية للقائد وأنثاه، ثم الأتباع، حسب تدرجها الطبقي[٣]. ولكن يبدو أن الذئاب العربية لا تتقيد بهذه الطريقة، ولعل ذلك يرجع إلى قلة عددها، وشدة رباطها العائلي.

ولذا قالوا: "ومن عادة الذئاب أنه إذا افترس ذئبان شاة، قسماها على شطريـن بينهما بالسوية"[٤].

---

(١) الهلالي، ديوان حميد بن ثور، ص١٠٥.

(٢) ابن زهير، ديوان كعب بن زهير، ص٢٢٦. الفريس: التي دُقّ عنقها. المَغيبة: التي بقي فيها شيء من الحياة بعد افتراسها. الصيداء: الشَّجَّة في الرأس أو العنق.

(٣) Mech, The Way of the Wolf, p. 64.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ج٩، ص٧١م.

ويتضح من قول امرئ القيس:

فطـــــرب يستعـــــوي ذئابـــــاً كثيـــــرة[١]

صفة التضامن عند الذئاب، فالذئب عندما عثر على الماء، لم يبخل به، على الرغم من قلته، فهو لا يعدو أن يكون فيه:

وفي صفوه فضل القَلوص من السِّجْل[٢]

بل ابتهج لذلك، وعوى لتشاركه الذئاب الأخريات شرب الماء.

طريقة شربه الماء

يقولون: ولغ الذئب[٣].

الولغ: نسق لا يفصل بينهما فترة، كعقدة الحاسب.

قال ابن جذل الطعان:

جمعت له كفـيَّ لما لقيته بطعن كَوَلْغ الذئبة المتدارك[٤]

ويقولون: لَطَع الكلب والذئب الماء، والتطعه[٥].

أي: شربه.

---

(١) ابن حجر، ديوان امرئ القيس، ص ص٣٦٣-٣٦٤. طرب: عوى. استعوى: دعا. القلوص: الناقة. الصفو: بقية الماء. السجل: الدلو العظيمة.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الزبيدي، التاج، "ولغ".

(٤) انظره، في حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت، تحقيق: وليد عرفات (لندن: لوزاك، ١٩٧١م) ج٢، ص٢٩٨. والإشارة إلى الأنثى "الذئبة" أمر لافت للنظر.

(٥) جار الله، أبو القاسم، محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة (بيروت: دار بيروت، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م)، "لطع".

أكل لحوم بعضها بعضاً

لعل هذا الأثر، هو الأثر الوحيد الذي يتناقض كلها مع الحقائق التي توصلت إليها الدراسات الحديثة، فلم يعرف في حياة الذئب أنه يأكل غيره من الذئاب. حقيقة أن مشاجرات دامية قد تقع في نطاق الأسرة الواحدة، كما أن هناك مشاجرات دامية خارج نطاق المجموعة، ولكن قلما تصل إلى حد القتل، ولو حدث القتل، على ندرته، فإن المقتول يظل طريحاً، ولاتقدم الذئاب على أكله، ولكن الدراسات تشير إلى أن الذئبة قد تستغني عن الذئب صاحبها، وتهاجمه، إذا كان هناك ما هو أقوى منه، ولكن ذلك الهجوم لايصل أيضاً إلى حد القتل، فالأكل[١]. مع أن هناك من لاحظ أكل الذئاب بعضها، إذا جُرحت، أو كانت قد أعيقت[٢].

أما التراث العربي، فهو يؤكد هذه الناحية، حتى ضُربت فيها الأمثال، فمن ذلك قول مغلس بن لقيط مؤكداً أكل الذئاب بعضها:

إذا هن لم يَلْحَسن من ذي قرابة دماً هُلِسَت أجسادُها ولحومُها[٣]

وقول العجاج، مشيراً إلى استغناء الذئبة عن صاحبها والاعتداء عليه:

فلا تكوني يا ابنة الأَشَمِّ وَرقاءَ دمّى ذئبَها المُذَمِّي [٤]

---

(١) Harrington and Paquet, Wolf of the World, pp. 302-303; L. Halls Robert & Henry S. Sharp, Wolf and Man (New. York: Acadimic press, 1978) pp. 203

(٢) Mech, The Wolf, p. 180

(٣) الجاحظ، الحيوان، ج١، ص ٣٧٩. هلست: سُلّت وهزلت.

(٤) الأصبهاني، الدرة الفاخرة، ج١، ص٣٠٨.

ونسبه أبوعبيد، عبدالله بن عبدالعزيز البكري، التنبيه على أوهام أبي علي القالي في أماليه (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م) ص٣٦، إلى العجاج. الورقاء: الذئبة.

أما عن الذئبة والذئب، فقالوا:

"أعق من ذئبة".

لأنها تكون مع ذئبها، فيُرمى، فإذا رأته قد دمي، شدت عليه، فأكلته[١].

ولكن هذا الأمر مختلَف عليه أيضاً، فالبكري يورد رواية القالي:

إني رَأَيْتُكَ كالوَرْقَاءِ يُوحِشُهَا قُرْبُ الأَلِيفِ وتَغْشَاه إذا نُحِرا

ثم يقول: قال:

"الورقاء: ذئبة تنفر من الذئب وهو حي، وتغشاه إذا رأت به الدم".

وهو يعلق على هذه الرواية، فيقول:

"لا أعلم أحداً أنشد هذا البيت إلا أبا علي".

ورأيه أن:

"التفسير الذي ذكره خلاف المعهود في ذكران الحيوان وإناثه".

ويتساءل:

"وكيف يسمى أليفاً من يوحش قربه؟! وإنما الأليف من يوحش بعده، ويؤنس قربه."

ويجيب عن هذا التساؤل مصحِّحاً ذلك التفسير، فيقول:

"المحفوظ في هذا ما رواه ثعلب عن ابن الأعرابي عن أبي المكارم — رحمهم الله:

أن الذئاب إذا رأت ذئباً قد عُقِر، وظهر دمه، أكبت عليه، تقطعه، وتمزقه، وأنثاه معها، تصنع كصنيعها"[٢].

وهكذا تكررت أقوالهم، مثل الذي يورده الجاحظ:

"الذئب لا يطمع فيه صاحبه، فإذا دمي، وثب عليه صاحبه، فأكله"[٣].

---

(١) الأصبهاني، الدرة الفاخرة، ج١، ص٣٠٨.

(٢) البكري، التنبيه على أوهام أبي علي القالي في أماليه، ص٣٦.

(٣) الجاحظ، الحيوان، ج٧، ص٦٣.

وكذلك:

"والذئب الضعيف من ذئاب الخمر، يكون مع الذئب الضعيف من ذئاب البراري، فيصيب القوي خدش يسير، فحين يشم ذلك الذئب الضعيف رائحة الدم، وثب عليه، فيعتري ذلك القوي عند ذلك من الضعف بمقدار ما يعتري الضعيف من القوة، حتى يأكله كيف شاء"(١).

ويذكر حمزة الأصبهاني خبراً طريفاً، يكشف عن حيلة يلجأ إليها الإنسان، إذا ما صادفته ذئاب، إذ يقوم بمحاولة جرح إحداها — وهو الاعتقاد أن الذئب المجروح تأكله الذئاب أصحابه — فتنشغل الذئاب بالذئب المجروح عنه، فيأتي بالمثل:

"ألأم من الذئب".

ثم يورد خِبْرتهم في ذلك، فيقول:

"قالوا:

ومن تمام لؤمه أنه ربما تعرض للإنسان منهما اثنان، فتسانداً، وأقبلا عليه إقبالاً واحداً، فإن أدمى الإنسان واحداً من الذئبين، وثب الذئب الآخر على الذئب المدمى، فمزقه، وأكله، وترك الإنسان".

ويورد شاهداً شعرياً على ذلك، وهو قول الفرزدق:

وأنتَ كذئب السُّوء لما رأى دماً بصاحبه يوماً أحال على الدم

ويشرح جملة: "أحال على الدم"، أنها تعني: أقبل عليه.

ويواصل الأصبهاني نقله لما راج عن أكل الذئب صاحبه، فيقول:

قالوا:

"فليس في خلق الله ألأم من هذه البهيمة، إذا يحدث لها عند رؤية الدم بمجانسها الطمع فيه، ثم يحدث لها ذلك الطبع قوة تعدو بها على الآخر"(٢).

---

(١) المصدر نفسه، ص١٤٣.

(٢) الأصبهاني، الدرة الفاخرة، ج١، ص٣٠٧. وانظر، الفرزدق، ديون الفرزدق، ج٢، ص١٨٧.

يقول ابن فضل الله العمري:

"عند اجتماعها لا ينفرد أحدهم؛ لأنه لا يأمن نفسه منها. وإذا أصاب أحدها جراحة أو ضربة، علمت أنه قد ضعف، فاجتمعت، وأكلته... وإذا نامت الذئاب، واجه بعضها بعضاً، وتنام حلقة حتى ينظر أحدها إلى الآخر"[١].

وإذا مرض، انفرد عن الذئاب، لعلمه أنها إن أحست بمرضه، أكلته[٢].

يقول بشر بن المعتمر، عن أكل الذئاب بعضها إذا ما جرحت:

كـــأذؤُب تَنْهَسَهـــا أَذْؤُبٌ [٣] لهـــا عُـــواء ولهـــا زَفْـــرُ[٤]

وهكذا، قال الكميت بن معروف الأسدي:

ومـــا أنا للمولى بذئب إذا رأى لـــه غِـــرّةً أدلى مـــع المُتَذَئِّـــب[٥]

وقول ثابت قطنة:

ما كنتَ إلا كذئب السوء عارضه أخوه يدمى ففرَّى جلدَه قِددا [٦]

ومع أن العلم حتى الآن لا يثبت هذه الظاهرة أبداً، وإن قال بها أحد الصيادين الغربيين في الوقت الحاضر شفوياً، مع تضارب في الآراء حول هذه النتيجة، [٧] فإنه من

---

(١) العمري، مسالك الأبصار وممالك الأمصار، ص٥٧. لا ينفرد: أي يبتعد بعيداً.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) النهس: الانتزاع بالثنايا.

(٤) ابن منظور، اللسان، "ربح". الزفر: الزفير، عكس الشهيق.

(٥) حاتم صالح الضامن، شعراء مقلون، (بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص١٥٦.

(٦) الأصفهاني، الأغاني، ج١٤، ص٢٥٧.

(٧) فمثلاً لا يثبت ذلك: Jim Brandenberg, The White Wolfe, (Scotland: James S. Thorton 1992, pp.22, 72. ويتشكك فيه: Mech, The Wolf, p. 180 إلا أن س ط. نباهة الحيوان، إعداد: عبداللطيف شرارة (بيروت: دار ابن زيدون، ط١، ١٨٩٠م) ص ص٢٥٧، ٢٦١، يثبته، وسبق أن مرّ ذكر هذا عند الحديث عن أكل الذئاب لحوم بعضها.

المحتمل جدا ألا تكون هذه هي الذئاب المعروفة، وإنما هي ظاهرة، ربما حدثت مع الضباع، كما ذكرنا ذلك، والتي قد تختلط بالذئاب.

ولقائل أن يقول: إن الملاحظات العربية قد تكون صحيحة، إذا كنا نظن أنه وجد ذات يوم الذئب ذو الشعر الطويل في الجزيرة العربية، وأن بعض مناطق الجزيرة العربية كان عامراً بالغابات العشبية، أو الأحراش الجافة، وأن هذا الذئب— وإن كان معروفاً عنه أنه مسالم جداً في أمريكا اللاتينية— فإن أقوال الصياد الغربي عن أوضاع الذئاب في تلك المناطق، ربما تنطبق على الذئاب العربية من النوع نفسه، إن وجد. ثم ماذا لو قلنا: إن هذا الذئب هو من نوع ذئب البراري، الذي يمتاز لونه بأنه أحمر في الغالب، والذي ربما كان موجوداً أيضاً، أو أنه الضبع البني...إلخ.

ومهما يكن ، فالضباع هي التي تأكل من بني جنسها إذا قتلتها، كما أثبته العلم. وهي التي تعتدي على الإنسان، أما الذئب ، فيميل العلم إلى إثارة الشك حوله.

الاجتماع الجنسي

جاء في نهاية الأرب للنويري عن الذئب:

"وهو يسفد مضطجعاً على الأرض، وذكره عَظْم"[1].

وهذا كلام ليس صحيحاً علمياً في جملته [2]، والصحيح قول الأبشيهي في المستطرف:

"إذا أراد السفاد، اختفى، ويطول في سفاده كالكلب".

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج٩، ص٢٧١.

(٢) انظر، Mech, The Wolf, pp. 111-114

وقوله أيضاً:

"ولا يعرف الالتحام عند السفاد إلا في الكلب والذئب"[١].

أي:

أن الذئبة تقبض على ذكر الذئب، كما تفعل الكلاب، ويطول اجتماعهما على ذلك - مما يعرف بالتعاضل ، أي: أن الذكر يهبط من على ظهر الذئبة ويتخالفان، وهي قابضة عليه - وذلك يسبب آلاماً للذئب، وهو مرتبط بها واقفين، غير مضطجعين فترة، وقد يضطجعان حتى الإنزال [٢].

ولعل مقولة التويري السابقة تفسر لنا ذلك الخلط بين الذئاب والضباع، والوشق أو القط البري، فالأخيران هما اللذان يتسافدان مضطجعين.

ولا يمكننا أن نستدل من قولهم:

"الذئاب السوافد أضم ما يكون وأذهبه، سخنة، وأشده غيره"[٣].

على الترتيب الطبقي للذئاب، كما هو معروف علميًّا من سيطرة الذئبين العلويين Alpha Wolf، وهما اللذان يتمكنان من الاتصال جنسياً، ثم يأتي بعدهما الذئاب درجات.

ولكن نتيجة هذا الاتصال هو إنجاب الجراء، وقد ذكروا حول ذلك أنه:

"إذا وضعت الذئبة جروها، فإنه يكون حينئذ ملتزق الأعضاء، أمعط، كأنه قطعة لحم، وتعلم الذئب أن الذكر يطالبه، فلا تزال رافعة له بيديها، ومحولة له من مكان إلى مكان حتى تفرج الأعضاء، أو يشتد اللحم"[٤].

---

(١) شهاب الدين، محمد بن أحمد أبو الفتح الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط٢، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م)، ج٢، ص١٢٨. وانظر:

Michael Fox, The Soul of the Wolf(Boston: Little, Brown, 1980), p. 20.

(٢) Mech , The Way of the Wolf. P. 91.

(٣) ابن قتيبة، المعاني الكبير، ج١، ص١٨١.

(٤) الجاحظ، الحيوان، ج٧، ص٦٤.

وبعض الجزء الأول من هذا الوصف صحيح علمياً، وملحوظ حيوياً في مجتمع الذئب، أما الجزء الثاني: "فلا تزال رافعة له بيديها"، فيشير إلى اقتصار إنجاب الذئبة على جرو واحد، في حين أن الذئبة تلد ما بين خمسة إلى ستة أجرية. والجزء الثاني أيضاً: "محولة له من مكان إلى مكان..."، والصحيح أيضاً أن الذئبة تغيّر جحورها من مكان إلى مكان، خشية أن يستدل عليه أحد، وكلا الأبوين يتعاونان في تغذية أبنائهما[١].

الذئب والنار

الذئب نادر الخروج في النهار، ولكن الذئاب تهيج هيجاناً شديداً في الليالي المقمرة، ولم يتحدث العلم عن علاقة الذئاب بالنار، ولكن جاء في كتاب قصصي:

أن رجلاً أحاطت به الذئاب، فلم يجد حيلة يتخلص بها منها، إلا بتسليط أشعة مصباح بيده نحو عيونها مباشرة، وكان وهو يفعل ذلك يتراجع خلفاً، حتى نجا منها[٢].

ولكن قال الجاحظ:

"مر أبو ثعلب الأعرج على وادي السباع، فعرض له سبع، فقال له المُكاري: لو أمرت غلمانك، فأوقدوا ناراً، وضربوا على الطِّسَاس، ففعلوا، فأحجم عنها"[٣].

ومعنى "السبع" هو الذئب. إذ المعنى ينصرف إلى الأسد أيضاً، غير أن الأسد الذي تخلو منه منطقة وادي السباع (الزُّبَيْر)، بالعراق، يهجم على النار[٤].

---

(١) Mech, The Wolf, pp. 121-146; Kingdom, Arabian Mammals, p.28.

(٢) John Pollard, Wolves And Werewoles (London: Robert Hale ltd., 1988) p. 38.

(٣) الجاحظ، الحيوان، ج٤، ص٤٨٥.

(٤) انظر، الأعشى، ديوان الأعشى، ص ٢٤١.

وتذكر قصة "الراعي والناقة والذئب".

أن الذئب هاجم رجلاً، فتخلص منها عندما:

"انتبه فجأة إلى أن الذئاب لا تخشى شيئاً كما تخشى النار والنور. وكان معه حجرا مرو يستخدمهما لإضرام النار، فاستخرجهما من جيبه ونزع غطرته (غطاء رأسه) ولف بجزء منها أحد الحجرين ثم فركه بالحجر الآخر فشب شرر وضوء قويان صعقا عيني الذئب المهاجم وجعلاه يرتد مذعوراً إلى الوراء"[١].

ويذكر بنونة أن الذئب: "يهاب الأنوار ولذلك يعمد بعض الرعاة لإشعال النار ليلاً لإهابته"[٢].

والثابت علميًّا أن الذئب لا يفزع من النور الخافت (مصباح اليد، مثلاً، إذا كان نوره ضئيلاً)، ولكن الأنوار الساطعة (أشعة آلة التصوير، مثلاً) تستفزه[٣].

وإذا كان ذلك حقيقة، فلماذا نجد شاعراً مثل المرقش الأكبر يقول:

ولما أضأنا النار عند شوائنا ... عرانا عليها أطلس اللون بائس [٤]

كما نجد الفرزدق، يقول:

وأطلس عسال وما كان صاحباً ... دعوت بناري موهناً فأتاني

فلما دنا قلت ادن دونك إنني ... وإياك في زادي لمشتركان

فبت أُسَوِّي الزاد بيني وبينه ... على ضوء نار تارة ودخان [٥]

---

(١) حسن عبدالله، الراعي والناقة والذئب (بيروت: دار الراتب العربي، ط٣، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص٦. غطرته: (غترته)، غطاء الرأس.

(٢) محمد عصام حسين بنونة، التعايش، (الرياض: مطبعة نجد، ١٤١٦هـ) ص٢٠٣.

(٣) Werner Freund, Der Wolfsmensch (Kassel: Neumamm – Nendamm, 1988), s. 40.

(٤) الأنباري، شرح ديوان المفضليات، ص٤٦٦.

(٥) الفرزدق، ديون الفرزدق، ج٢، ص٣٢٩.

ويقول عمرو بن الصعق:

ونـارٍ بمومـاة قليـل أنيسهـا أتاني عليها أطلس اللون بائس [١]

فهل نحن أمام حقيقة، أو أنه تصور فني، وتقليد غير متحقّق منه، أو أننا في الواقع لسنا أمام ذئب، وإنما ضبع، كما مر بنا؟؟؟

ويقول الحطيئة:

ويمسي الغراب الأعور العين واقعاً مع الذئب يَعْتَسّان ناري ومفأدي [٢]

ويقول آخر:

يـا ربَّ ذئبٍ باسـلٍ مقـدام مُنْجَـرِدٍ في الليـل والإظـلام [٣]

مُعـاود أكـل الشاء والأنعـام قد ضاقني في الليل ذي التمام

فـي ليلـة دانيـة الإزرام [٤] يَقـرِش مـا أُلقي مـن العظـام [٥]

فبـات فـي أمنـي وفـي ذِمامـي مستدفِئـاً مـن لَهَـب الضِّـرام [٦]

---

(١) الميداني، مجمع الأمثال، ج٢، ص١٠٠.

(٢) جرول بن أوس الحطيئة، ديوان الحطيئة، تحقيق: نعمان أمين طه (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط١، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م) ص١٥٥. مفأدي: ما أختبز وأشوي به.

(٣) منجرد: قصير الشعر.

(٤) الإرزام: شدة الرعد. الضِّرام: توقد النار.

(٥) يقرش الشيء: يأخذه أولاً بأول.

(٦) عبدالرحمن رأفت الباشا، الصيد عند العرب (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٣٩٤هـ/١٩٧٢م) ص٢٣٥.